كان لصاً

عن الانجليزية

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

كانت الليلة هادئة حارة من الليالى التى يصادف أن تكون كذلك فى خلال شهر أكتوبر فتذكر بليالى الصيف وتحمل الناس على فتح النوافذ والأبواب لاستنشاق النسيم المشبع برائحة الأزهار، ودقت أجراس الكنيسة مؤذنة بالساعة العاشرة فكانت دقات تلك الأجراس هى الأصوات الوحيدة التى شقت سكون الليل. واستيقظت عند سماعها الآنسة صوفيا وكانت نائمة فى حجرة أبيها بالكوخ الصغير القريب من الكنيسة وقد تخلل الغرفة ضياء القمر من النافذة المفتوحة.

وكانت صوفيا خفيفة النوم يوقظها أضعف الأصوات وقد سمعت بعد استيقاظها بقليل حركة خفيفة ولكنها غير عادية بالكوخ فقامت من السرير وأطلت من النافذة فرأت رجلا فى الحديقة التى أمامها رافعاً بصره نحو النافذة وقالت بصوت ضعيف: « من هذا؟ » ثم تبينته فقالت: « أأنت توم كلاتشلى؟ »

أجابها الرجل بمثل صوتها خفوتاً: « نعم ياخالتى صوفيا »

قالت: « إذن فامش نحو الباب، وفى دقيقة سأفتح لك »

لكن الرجل ظل واقفاً فى مكانه وقال: « لاتفتحى فقد نسيت أنكم أتبكرون فى النوم؛ وإننا الآن فى ساعة متأخرة، وسأنام الليلة فى القرية مع بعض أصحابى وآتى إليكم فى الصباح لأتناول معكم طعام الأفطار

قالت صوفيا بصوت فيه رنة الغضب « كلا يا ابن أخى فلن أتركك تذهب بمدغيابك سنة كاملة، ولا يهمنى مجيئك متأخراً فان رؤيتك عندى خير من نوم ساعة أو ساعتين. إذهب إلى الباب وسأكون عنده قبل أن تصل إليه

ثم أسرعت إلى الباب والشمعة فى يدها ويدها الأخرى تمتد إليه للترحيب به

وفى بضع دقائق أوقدت النار فى المطبخ. ولما عادت بالطعام قالت: « يظهر أنك جائع وأنك تحس بتعب شديد، فكل ثم أخبرنى أين كنت وماذا كنت تفعل فى هذه المدة؟ »

لكنه لم يظهر اهتماماً بالطعام وقال: « لم أكن فى حالة مرضية فى تلك المدة لأنه ليس من السهل على الانسان أن يهرب من شهرته

وكانت اللهجة التى يتكلم بها دالة على الامتعاض الشديد فقالت: « لكن ذهابك كان حماقة شديدة منك لأنه حمل الناس على كثرة الكلام، فانهم صدقوا الآن كل ما يقال عنك ونسبوك إلى الاجرام »

قال: « وأى شىء ينافى الحق فى قولهم؟ أليست السرقة إجراماً »

فأظهرت صوفيا دهشة شديدة ودقت بيديها على المنضدة وقالت: « سرقة! إنك لم تكن قط سارقاً ولن تكون كذلك. إن السرقة فى نظرى أكبر من أن تتناول شيئاً ثم تنسى أن تضعه مكانه كما فعلت فى صندوق « البسكوت وعلبة المربى » من عند البدال ... إن السرقة هى رغبة الحصول على الثروة وابتلاء الغير بالفقر فى هذا السبيل. وهؤلاء يستحقون الشنق »

قال: إنك لتدهشيننى بتفكيرك على هذا النحو

لأنه لم يبد منى ما يبرر ثقتك بى فقد فررت دون أن أحاول تبرئة نفسى »

قالت : « نعم وقد كنت أدرك أنك غير مستريح » فقال: «ولكن لو كان كل الناس يظنون بي كما تظنين ويعاملونني مثل معاملتك لكان حظى حظاً آخر »

فأطالت صوفيا النظر إلى وجهه وقالت : « ولكن القاضى هنا عادل ، ولم يمكن ثمت ما يدعو إلى الظن بضياع الحقيقة لو أردت إظهارها »

فقال : « هبي أن الحقيقة كانت ضدي فكان فى إظهارها إساءة لسمعتك وتنغيص لك »

رفعت صوفيا رأسها بشكل يدل على الزهو وقالت: « إنك لا تفعل ما يسبب لى ذلك، فانك كنت باراً بأمك وكنت تحبها وتخشى عليها وأنا أحبك مثل حبك وأثق بأنك لن تفعل ما ينغص حياتى »

فقال : « ولكنى وأنا أدرى بنفسى أنصح لك بألا تحاولى إبقائى عندك . وقد زرتك الليلة لأعرف كيف حالتك المالية لأنى بحاجة إلى ثوب جديد وحذاء وقبعة حتى أظهر بمظهر محترم لأني قد وجدت عملاً »

قالت صوفيا وقد تلاشت الابتسامة التى كانت مرتسمة على وجهها : « وهل تريد مالاً ياتوم ؟ إنه ليس لدىّ مال فقد صرفت مصاريف كثيرة فى هذه الأيام . ودفعت أجرة المنزل . و ... »

فقال : « إننى لا أريد أن آخذ المال منك ياخالتى »

قالت: « ولكننى أنا أيضاً لا أتركك بغير مال ما دام الأمر يؤدى إلى وجود عمل لك »

ثم حددت النظر إليه وقالت : « أصغ إلىّ ياتوم! خذ هذه الأوانى الفضية وبعها واشتر لنفسك ما تريد . وانى لأثق تمام الثقة بأنك ستكون مستقيماً لأجل رضائى »

فقال توم : « كلا كلا ياخالتى فانك أحسنت إلىّ كثيراً فى الماضى وأظهرت بى ثقة عظيمة

قالت: « إذا لم تأخذ هذه الأوانى فانى سأبيعها فى الصباح وأضع ثمنها تحت تصرفك »

فتغيرت حالة توم فجأة عند ما رأى تشبثها باظهار العطف عليه وقال : « إننى على كل حال سأرد ما آخذه سواء منك أو من غيرك بعد حصولى على العمل . وأقسم انى سألزم الاستقامة لسبب واحد هو أن يكون ظن الناس بى وثقتهم مثل ظنك وثقتك »

قالت : « أشكر لك هذا الشعور والآن قد آن وقت النوم »

ودلته على الغرفة التى سينام فيها، فقال إنه سينام فى أقل من ربع ساعة . وتركته قائلة إنها ستنام أيضاً

ولكنها لأول مرة فى حياتها لم تف بما قالته فذهبت إلى غرفتها لتقاوم النوم ولتراقب الحديقة . فلما انقضت نصف ساعة رأت شبحاً يخرج من الدور الأرضى فى الكوخ ، فتنهدت وأظهرت ارتياحها وقالت : « الآن أحمد الله على خروج اللص وعلى أنى بإهدائى إلى ابن اختى ما أهديت لم أخسر شيئاً ، بل أهديت إليه ما تركه اللص هنا حين سمع صوتى .

وكانت الحقيقة أن لصاً دخل فى المنزل قبل مجىء توم، فلما سمع صوت صوفيا اختبأ وترك الأوانى الفضية؛ ثم سمع ما دار من الحديث ، فانتظر حتى هدأت الأصوات وخرج تائباً حين رأى اللص الآخر قد تاب ، وحين رأى غير اللصة تسرق اللصين معاً

عبد اللطيف النشار